

ثلج آخر الشتاء



يوم ثلجي آخر... وأسطح البيوت الطينية لقرية "المسيفرة" تئن تحت وطأة سبانخ البيض المتراكمه التي تهطل دون توقف منذ ثلاثة أيام. لماذا يصر الشتاء على أن يودع بمثل هذه الثلوج المتواترة الهطول؟ يوم ثلجي آخر، وأخته سلمى راقدة على الفراش القطني منذ أكثر من شهر وردة شتائية ذابلة على الرغم من أنها في شرج الشباب. لمن يكن "أسعد" يتوقع في بداية الأمر أن تزداد وطأة المرض وأن يتفاقم على هذه الصورة، في البداية ظنوا أنّه نوع من أمراض البرد التي تأتي مع الشتاء مترافقة بحمى عابرة وسعال سرعان ما يزول مع بعض كؤوس من الزهورات. وعندما اشتد المرض وازدادت نوبات السعال هرع إلى "أم مطير" يستجد بخبرتها الطويلة في معالجة أهل القرية. وعيثنا حاولت أمها أن تقنعه بأن أم مطير دجاله، والأعشاب التي تصفها للمربيض تزيد حالته سوءاً بدل أن تكون سبباً في شفائه. ولهذا صاحت به: خذ أختك إلى مستوصف المنطقة، حالتها صعبة، ولكنه ركب رأسه وأصر على أن تعالجها أم مطير. - ماذا لدى أم مطير غير الأعشاب، أعطتها كمية من الزهورات البرية وهي تقول: ضعوها في الماء المغلي ولتشرب منها سبع كؤوس في اليوم وسلمى تشرب كؤوس الزهورات على ما فيها من مرارة، سبع وراء سبع، والمريض يزداد يومياً بعد يوم. - ويهرع أسعد كل يوم إلى طبيبة القرية، دخيلك يا أم مطير، سلمى حالتها بالويل. - ألا تسقونها كل يوم سبع كؤوس من الزهورات؟ - سقيناها سبعين ولم تتحسن حالها. - طول بالك، يجب أن يأخذ المرض حده، أين بقية الدرام؟ ألم تدعني بأنك ستعطيني مئة ليرة أخرى غير المئة الأولى. - ليس لدى

دراهم، سوف أجلب لك بعض العدس بدلاً من المائة ليرة. - وماذا أفعل بالعدس؟ لدى كيس عدس "صاغ" وكيس مجريوش. - إذن، أصبر على حتى يتتوفر لدى بعض المال. - سأصبر ثلاثة أيام فقط وبعدها أنت تعرف لسانني. - نصحوني أنها أنقلها إلى المستوصف في مركز المنطقة، ما رأيك؟ - خذها إلى جهنم، أنتم تقتنعون بطبيعة أم مطير. تذهبون إلى المنطقة وإلى المدينة وتدفعون مئات الليارات دون أن تتحققوا أي فائدة ثم تعودون إلى متضرعين: دخلك يا أمر مطير. - ولكن المعاينة والمعالجة في مستوصف المنطقة بالمجان. - إذن اذهب إليه ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن، ارسل لي المائة ليرة مع أي شخص. عاد أسعد إلى البيت بصعوبة بعد أن تراكمت الثلوج في أزقة القرية وأصبح التجوال فيها نوعاً من المغامرة. وفي البيت كانت حال سلمى تزداد سوءاً وأمه تصرخ في وجهه: ماذا تنتظر يا أسعدي؟ أختك تموت، خذها إلى المستوصف. - هل شربت الزهورات؟ - لم تعد تحتمل طعم هذه الزهورات المرة القاتلة. لعلها هي التي جعلت حالها تزداد سوءاً، لقد سقيتها مغلي الختمية. - ومن قال لك إن مغلي الختمية يفيد؟ - مغلي الختمية يهدى السعال، وهو على كل حال أفضل من زهورات أم مطير، هيا حاول أن تأخذها إلى المستوصف. - ولكن الثلوج يسد جميع الطرق. - سمعت في الراديو أن طريق المنطقة سالك ولكن بصعوبة، اذهب إلى حسين الحمود لينقلهما إلى المستوصف بشاحنته. اندفع "سعد" بكل قواه يخترق الثلوج الكثيف وقد امتلت نفسه خوفاً وشفقة، انطلق مسرعاً وقد نسي أن يأخذ معطفه، سلك الطريق الشمالي المختصر المؤدي إلى محطة المحروقات، كانت الممرات قد تكاثفت فيها طبقات الثلوج فوق بعضها البعض فيبات عبرها صعباً. اتجه إلى محطة المحروقات حيث يمكن أن يجد حسين الحمود" الذي طالما تعود الجلوس هناك يدخن السجائر ويثرثر مع السائقين القادمين من المدينة والمتوجهين إلى القرى المجاورة. في الخارج كانت ندف الثلوج لا تزال تهطل بغزاره ويندفع من وقت لآخر هواء عاصف مندى يصل إلى سهول القرية وحقولها يسابق الندف ويدحرجهما أمامه ثم يطيرها عالياً فوق قبب البيوت وأسطحها على شكل زوابع بيضاء مجونة ترتطم بجذوع الأشجار الضخمة التي تحيط بالقرية في الجهة القبلية ثم لا تلبث أن تغرق في الغابة الموحشة المجاورة. بدأت أطراف أسعد تتجمد ولو نه يشحب ويميل إلى الزرقة برغم جميع محاولاته في مقاومة البرود. وفجأة شعر وكأن الدفء قد تسلل إلى داخله ليطرد اضطرابه حين لاحت له من بعيد، كانت كظلالة أشباح هاربة تتراقص أمامه أما الآن فقد رأها من بعيد مطمورة تحت الثلوج وكأنها نجمة تشع من مدخنتها المهمشة سحائب فضية تسبح في الفضاء الرمادي. دخل محطة المحروقات بعد أن أضناه التعب والإرهاق وتجمدت دمائه وأحس بثقل قدميه وعجزهما عن حمله. - حمداً الله، حمداً الله خشيت ألا أجده يا حسين. - ماذا هناك؟ - ازدادت حالة أخي سلمى سوءاً سوف تموت، يجب أن تنقلها إلى مستوصف المنطقة، قال هذا وأنسانه ما زالت يصطاد بعضها بالبعض الآخر وأطرافه ترتجف

وعيناه تدمعن. في هذه اللحظة استدار خالد المصطوف، الذي كان مشغولاً بنفخ أحد الدواليف ورمه ببنظرة خبيثة من عينيه الغائرتين في كهف جبهته واللتين تنمان عن غباء باد وسألته مستغرباً: - مستوصف المنطقة؟ وما بها طبابة أم مطير؟ يا ويلي منكم يا أبناء المسيفرة، أنتم كالقرع تمدون جذوركم إلى الخارج ودائماً تنسون نصائح الجدات. - أخذناها إلى أم مطير ولم ينفع معها أي دواء هي بحاجة إلى طبيب، والطبيب لا يوجد إلا في مستوصف المنطقة، هكذا قالت أمي. - طبابة أم مطير نفعت أجدادنا وآباءنا ونفعتنا أيضاً، اطلب إليها أن تغير لها العشبة وتعطيها عشبة محوجة تتناسب علىتها، في السنة الماضية مرضت أم ذنون فكررت لها الوصفات وهي الآن بألف خير، تعجن وتخبز مثل الحصان، طبابة أم مطير لا يعلى عليها وهي مبروكة أيضاً ولها أسرارها. - كررنا لها الوصفة عدة مرات ولم ينفع معها شيء. - وطبيب المستوصف لن ينفعها. - ربما ينفعها، ستحاول والشفاء بيد الله. - اذهب ولكنك ستعود إلى أم مطير. قطع حسين الحمود كلام خالد والتفت إلى أسعده: يجب أن تنقلها إلى مستوصف المنطقة، قفزت صورة سلمى إلى ذهن أسعده وهي ترجوه ليأخذها إلى المستوصف فالترمعت عيناه وأحمر وجهه وحاول أن يتمالك أعصابه، وفي هذه اللحظة تعالى في الخارج هدير زوبعة أنهت دورتها وارتطم بشدة بنواذن المحطة فخفق جمر الموقد والتهب من جديد بعد أن كاد ينطفئ. - لا أستطيع أن أنتظر أكثر هل أنت ذاًهب معي يا حسين؟ - نعم ولكن انتظرني قليلاً. دخل حسين الحمود وغاب في المستودع ووقف أسعده ملهوفاً، كان لديه ما يبرر لهفته التي يشوبها بعض اليأس فالحالة لا بصيص للنور فيها ولا فسحة للأمل الذي ينقد تلك المسكينة من آلامها فقد طال مرضها وهي على فراشها القطني كشبح امرأة وقد ربطت رأسها الصغير بمنديل أخضر وعلامات الضعف والوهن تبدو عليها وهي تصارع مرضها وعيناها مشبوحتان إلى السماء تتضعضع إلى الله أن يريحها من عذابها. مرت دقائق بدت كما لو أنها ساعة وحسين الحمود في الداخل وبعد قليل خرج يحمل جنازير حديدة. - أسرع يا أسعده ساعدني يجب أن نركبها على دواليب الشاحنة لتساعدنا على اختراق الثلج دون أن تنفرز في الأرض. خرجا مسرعين واتجها إلى الشاحنة. استغرق العمل أكثر من ساعة قبل أن يدور محرك الشاحنة ولكن كان الثلج قد غطى جزءاً من الدواليب لتدور معها الجنائزير وهي تطحن كثافة الثلج. وكان أسعده يحدث نفسه: "أبشر يا سلمى.. سننطلق إلى المستوصف" وعند البيت ركن حسين السيارة ودخل أسعده ليخرج بعد قليل يحمل سلمى وتبنته أمه تحمل بيدها بطانية. وبعد رحلة مضنية استمرت أكثر من ثلاثة ساعات وصلوا إلى المستوصف ولم يكن ثمة أحد، نادى أسعده بصوت مخنوق وكرر نداءه ولم يجب أحد على ندائه على الرغم من أن باب المستوصف كان مفتوحاً. وكرر أسعده النداء بصوت عال فخرج ممرض من الغرفة التي في آخر الممر متثاقلاً يحمل بيده كوباً تفوح منه رائحة الشاي الأخضر وتنصاعد منه الأبخرة وقد ارتدى مريولاً أبيض نظيفاً، أين منه رداء أم مطير الرمادي الذي

يوحى بالشئم! - خير ماذا تريدون. - أختي مريضة وهي بحاجة لعلاج. - ما مرضها؟ - إنها تسعل سعالاً شديداً، منذ شهر. - لماذا لم تحضروها من قبل؟ لماذا انتظرتم إلى هذا الوقت؟ يبدو أن حالتها سيئة هيأجلسها على الكرسي ودعها ترتاح. قال ذلك وأخذ رشفة من كوب الشاي بعد أن أنسد جثته الضخمة على الحائط فسألها أسعده: - أنت الطبيب؟ - لا.. الطبيب في المدينة، لم يستطع المجيء بسبب الثلوج، الطرق مقطوعة. - وما العمل؟ - واإ يا أخي لا أستطيع أن أخدمك في شيء فأنا هنا لست سوى ممرض تخدير ولا يحق لي أن أقوم بدور الطبيب. أنتم بحاجة إلى طبيب مختص وأنا لست طبيباً ولا مختصاً. لم أسألك: من أي القرن أنتم؟ - من المسيفرة. - كيف استطعتم الوصول من المسيفرة، إنها بعيدة. - الفضل للو للأخ حسين صاحب السيارة. يا أخي أرجوك أن تساعدنا اتصل بالطبيب في المدينة أريد أن أتحدث معه. لن نغادر المستوصف حتى يحضر. - لا تتعب نفسك، لن يحضر الطبيب، لا يستطيع الحضور، الطرق مقطوعة. - انظر إليها أليس في قلبك رحمة ولا شفقة؟ - لا تتعبني أرجوك، خذ مريضتك إلى القرية قبل أن يحل الظلام. - وماذا نفعل، هل نتركها تموت؟

- دادامت تعاني من السعال، عليكم بالزهورات.

المصدر: مجلة العربي/ العدد 485